الزاوية التجانية باب الخضراء – تونس

الإمام الخطيب الحاج الحبيب بن حامد

سيّدنا النبي مربيّا ومعلّما

﴿ الخطبة الأولى ﴾

يوم الجمعة 25 ربيع الأول 1436 هـ / 16 جانفي 2015 م

الحمد لله،

الحمد لله ربّ العالمين بعث رسوله معلّما وهاديا، إلى الخير داعيا ومن الشرّ محذّرا وناهيا، أحمده سبحانه وتعالى بما هو أهل له،

من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ هو الفاعل المختار، رفع أولي العلم درجات عليّة وشرّفهم فقال ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾[[1]](#footnote-1)،

وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبد الله ورسوله كرّمه ربّه تكريما فقال جلّ من قائل ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[[2]](#footnote-2)،

اللهمّ صلّ وسلّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأمّته،

أمّا بعد،

لقد أرسل الله تبارك وتعالى رسول الأمين صلّى الله عليه وسلّم هاديا للبشريّة جمعاء ورحمة للعالمين، قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[[3]](#footnote-3)، ويقول صلّى الله عليه وسلّم « إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ »[[4]](#footnote-4)، أرسله الله معلّما وجعله للأنبياء خاتما وللأخلاق متمّما، قال صلّى الله عليه وسلّم « إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا »[[5]](#footnote-5) ولقد امتازت رسالته بالعلم، ولقد امتازت رسالته بالعلم قال تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[[6]](#footnote-6)، وقال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[[7]](#footnote-7).

فمع كثرة معجزاته الحسيّة فإنّ معجزته الكبرى هي **معنويّة**، هي **تعليم**، **تربية**، إخراج العالم كلّه من الظلمات إلى النور، كلّهم أمّته إلى قيام الساعة فمنهم مؤمن ومنهم كافر.

فهو المثل الأعلى للإنسانيّة جمعاء ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾[[8]](#footnote-8) وهو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أعطى المثل الأعلى في كلّ العلوم وفي كلّ السلوك، من نفسه، وترك لنا منهاجا نقتدي به.

وهدف رسالته صلّى الله عليه وسلّم وهدف معجزته هو إقامة مجتمع إنساني نظيف العقيدة نظيف السلوك في كلّ وقت، بني على العلم والتقوى.

وأمرنا الإسلام بالتزوّد بالمعرفة والتقوى والتسلّح بالعلم النافع أيّا كان، فلقد اعتنى صلّى الله عليه وسلّم بتهيئة العقليّة المناسبة لترسيخ مناخ علمي، فجعل صلّى الله عليه وسلّم الربط بين المقدّمات والنتائج أمرا واجبا فلا يقبل دعوى بدون دليل، قال تعالى ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[[9]](#footnote-9).

* ويحذّر صلّى الله عليه وسلّم من الحكم على الأمور بالعاطفة أو بالظنّ فيقول « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ »[[10]](#footnote-10) وقال تعالى ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾[[11]](#footnote-11).
* وحثّ صلّى الله عليه وسلّم على تعلّ اللغات غير العربيّة لفهم الشعوب والمجتمعات الصديقة والانتفاع منها أو العدوّة واتّقاء شرّها.
* وحثّ صلّى الله عليه وسلّم على الاحصاء والتخطيط للمستقبل لأنّ المسلم الحريص على النجاح دنيا ودين لا بدّ أن يأخذ من يومه لغده ومن دنياه لآخرته ومن حاضره لمستقبله، وقد سجّل القرآن الكريم مشروع تخطيط الاقتصاد الزراعي مدّة 15 عاما لمواجهة أزمة غذائيّة فكان هذا التخطيط سببا من أسباب مرور الأزمة المكتوبة لكن بدون مضاعفات، اقرؤوا قول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ \* ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ \* ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾[[12]](#footnote-12)، ولمّا دخل صلّى الله عليه وسلّم المدينة قال « اكْتُبُوا لِي مَنْ يَلْفِظُ بِالْإِسْلَامِ مِنَ النَّاسِ » فَكَتَبْنَا لَهُ أَلْفًا وَخَمْسَمِائَةٍ رَجُلٍ[[13]](#footnote-13)، فالاحصاء والتخطيط في كلّ الميادين علم حرص صلّى الله عليه وسلّم على العمل والانتفاع بع وعدم العشوائية والهمجيّة في تصرّفاتنا وحثّنا على التربّص وعدم الغضب وحثّنا على تأمّل الأمور ثمّ العزم ثمّ التوكّل على الله تعالى.
* وحثّنا صلّى الله عليه وسلّم على التوكّل على الله بعد اتقان الأسباب ونهانا عن التواكل والكسل وحثنا على اتقان العمل والصدق فيه ونهانا عن الغش فيه وأكل الرزق بدون المقابل. وحثّنا صلّى الله عليه وسلّم على عدّ كلّ هذه عبادة عظيمة تجمع بين الدنيا والدين والروح والجسد.

فأين نحن من كلّ هذا ؟؟

ولماذا تغضب إذا ظهر علينا عدوّنا وحاول إهانتنا واحتلّنا واحتلّ أذهاننا واحتلّ أذهان أبناءنا وبناتنا ونسائنا واحتلّ مشاعرنا وجعنا سوقا يتاجر فيها. هل الفاشل بسبب العدوّ أم بسببنا نحن ؟ لم نتّبع سنة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتواكلنا ؟

ولمّا بنى صلّى الله عليه وسلّم قراره التاريخي صلح الحديبية بناه على ما يحققه هذا الصلح من فوائد جمّة للمسلمين ومستقبلهم ولم يبنه على عواطف وأحاسيس وتهور حتى تبيّن لأصحابه من بعده أنه صلّى الله عليه وسلّم كان على صواب عظيم ونظر بعيد.

فلنتّق الله عباد الله في عملنا وعلمنا وديننا ولنراجع أنفسنا ولنواجه أنفسنا بالحقيقة ولنستدرك ما فات ونعمل على اللحاق برسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه الكرام في هذه المسيرة مسيرة العلم الدائم والعمل الدائم وكسب أسباب القوّة والمناعة على الدوام، قال تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾[[14]](#footnote-14)، وتربية أنفسنا وأولادنا على ذلك وعدم البكاء ولا التهور فإنّ العمل بالشرّ يزيد في الشرّ ولندافع على رسولنا وديننا أوّلا بالذات بالعمل بما جاء به والاقتداء به وإلاّ فليس لله ولا لرسوله حاجة إلى صراخنا وبكائنا فالله لا يمسّه شيء والرسول صلّى الله عليه وسلّم لا يصله شيء مما يقولون ولا يمسه شيء حاشا لله فهو منصور بالله دائما وأبدا وشريعته منصورة بالله ولكن نحن نطلب النصر من الله ومن رسول الله وعلينا بالعمل الجاد والجهاد الأكبر.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ \* وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ \* وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

1. سورة آل عمران الآية 18 [↑](#footnote-ref-1)
2. سورة النساء الآية 113 [↑](#footnote-ref-2)
3. سورة الأنبياء الآية 107 [↑](#footnote-ref-3)
4. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان والسيوطي في الجامع الكبير والحاكم في المستدرك وقال : هذا حديث صحيح على شرطهما فقد احتجا جميعا بمالك بن سعير، والتفرد من الثقات مقبول [↑](#footnote-ref-4)
5. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ بَعْضِ حُجَرِهِ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ بِحَلْقَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَدْعُونَ اللَّهَ وَالْأُخْرَى يَتَعَلَّمُونَ وَيُعَلِّمُونَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « كُلٌّ عَلَى خَيْرٍ هَؤُلَاءِ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَدْعُونَ اللَّهَ فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ وَهَؤُلَاءِ يَتَعَلَّمُونَ وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا فَجَلَسَ مَعَهُمْ » ابن ماجه في سننه بَاب فَضْلِ الْعُلَمَاءِ وَالْحَثِّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، والدارمي في سننه باب فِى فَضْلِ الْعِلْمِ وَالْعَالِمِ، والسيوطي في الجامع الكبير. [↑](#footnote-ref-5)
6. سورة النحل الآية 44 [↑](#footnote-ref-6)
7. سورة الجمعة الآية 2 [↑](#footnote-ref-7)
8. سورة النحل الآية 60 [↑](#footnote-ref-8)
9. سورة البقرة الآية 111 [↑](#footnote-ref-9)
10. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَأْثُرُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا إِخْوَانًا وَلَا يَخْطُبُ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ حَتَّى يَنْكِحَ أَوْ يَتْرُكَ » أخرجه البخاري في صحيحه بَاب لَا يَخْطُبُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ حَتَّى يَنْكِحَ أَوْ يَدَعَ [↑](#footnote-ref-10)
11. سورة النجم الآية 28 [↑](#footnote-ref-11)
12. سورة يوسف الآية 47 - 49 [↑](#footnote-ref-12)
13. عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « اكْتُبُوا لِي مَنْ تَلَفَّظَ بِالْإِسْلَامِ مِنْ النَّاسِ فَكَتَبْنَا لَهُ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةِ رَجُلٍ فَقُلْنَا نَخَافُ وَنَحْنُ أَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا ابْتُلِينَا حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي وَحْدَهُ وَهُوَ خَائِفٌ » وفي حديث عَبْدَانُ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ الْأَعْمَشِ « فَوَجَدْنَاهُمْ خَمْسَ مِائَةٍ » قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ « مَا بَيْنَ سِتِّ مِائَةٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ » أخرجه البخاري في صحيحه بَاب كِتَابَةِ الْإِمَامِ النَّاسَ [↑](#footnote-ref-13)
14. سورة الأنفال الآية 60 [↑](#footnote-ref-14)